العنكبوت

قصة بقلم يوسف الحيدري

انهار بجسده المتعب مرة واحدة وبحركة متشنجة فوق الاريكة وقد احتقن وجهه وتقلصت عضلاته فبدا كقطعة شوندر مسلوخة .

بعد ان قذف بعصاه بعيدا ، دفن رأسه بين راحتيه وهو ينفض انتفاضات سريعة متتالية . كانت العصا طويلة ، تنتهي باسطوانة صفيحية مشبكة ترتبط نهايتها برأس العصا وتشكل مع الطرف السائب غطاء مشبكا مجدولا من خيوط القنب القوية ، بحيث يسهل من حركة الغطاء ، فبحركة بسيطة يمكنه ان يهز العصا فينتفخ الغطاء ،وبحركة دقيقة أخرى يمكنه اصطياد ما يشاء داخل الشبكة المجدولة بأحكام..

حدق في وجهي مشدوها .. بعد أن هدأ قليلا وسكنت آخر عضلة في وجهه المحتقن ، ثم على حين غرة أطلق ضحكة عنيفة ..وهو يدنو بخطواته الثقيلة .. وبعد ان صار على بعد خطوات قليلة مني .. ارتسمت على وجهه علامات انزعاج غريبة .. وصاح !

ـ لقد اصطدت اليوم عشرة .. من تلك العناكب اللزجة ، بعد أن رحت ارقبها وهي تلامس بأرجلها النحيلة انسجتها الدبقة .. ألست صيادا ماهرا ؟ هه .. ماذا قلت ؟ ألست صيادا ماهرا ..؟ صمت فجأة ، ثم أخذ يتفحص بعيون مفتوحة .. تقاطيعي ، وكأنه يراني لاول مرة ، وراح يضرب كتفي براحتيه الضخمتين .. وهو يردد بهلوسة :

ـ أنت عزيز اذن ؟ تعال يا صديقي .. هيا .. سوف تراها جميعا .. يا لها من كائنات قذرة .. هيه .. أنت عزيز اذن ؟.

غمرني ذهول ، فلم أعد أصدق ما أرى .. وقبل ان الفظ بكلمة جرني من يدي وهو لا يزال يضحك ..

* * *

دلفنا الى حجرة صغيرة نصف مظلمة ، كانت عبارة عن مطبخ قديم متروك منذ سنوات ، تناثرت في أرجائه بعض الاواني العتيقة المسودة، وقطع من الاخشاب المحروقة وأشياءأخرى . كانت الجدران ملطخة بالسواد وقد تناثرت في زواياها وعلى حافات الرفوف الخشبية المتآكلة شبكات ضخمة من نسيج العناكب الرمادية ، وقد تمزقت أجزاء منها راحت تتدلى على شكل خيوط لزجة متينة .

أشار بيد مرتعشة الى رف متآكل فوق الجدار المقابل للباب ... كانت قناني زجاجية عديدة ، مختلفة الاشكال والحجوم مرصوصةبانتظام غريب ، لا ينسجم مع فوضى المكان .. رحت أحدق في القناني بفضول كبير ودون أن أفهم شيئا ، وحين لمح دهشتي وصمتي .. صرخ في وجهي بغتة وقد لاحت على وجهه علامات فرح مفاجيء :

ـ أنظر اليها جيدا .. يا لها من كائنات خسيسة .. تمتع يا عزيز بمنظرها .. هيا انظر اليها جيدا .. الا تبعث فيك النشوة .. وأنت تراها تتعذب هكذا ؟ أنظر الى ذلك العنكبوت الاصفر الكبير .. يا له من لعين .. لقد عذبني كثيرا ، قبل ان أستطيع اصطياده وسجنه داخل زجاجته الكبيرة .. لقد حكمت عليه بالسجن الانفرادي!. أنظر كيف تتزحلق هذه الكائنات الحقيرة داخل زجاجاتها الملساء .. وتسقط في القيعان دون جدوى .. انني سعيد بعذابها يا عزيز .. سعيد جدا .. ها . ها .. ها ها .. ها ..

كنت الان كمن يعاني تحت وطأة كابوس مزعج .. حاولت ان استوعب في ذهني المكدود كل ما يجري امامي من غرائب ، غير ان منظر عشرات العناكب وهي سجينة تحاول الخروج عبر الجدران الزجاجية الملساء كان أفظع من ان يستوعبه حتى خيالي ، ولست ادري لماذا غمرني شعور مفاجيء بالرثاء لهذا الانسان الذي كان يوما ما صديقي.. ودون وعي رحت اتمتم :

ـ مسكين .. لقد انتهى اخيرا ...

كان صمت ثقيل يخيم تدريجا على جو الغرفة الصغيرة ، وكنت أجد لذة خفية في التطلع الى كل كبيرة وصغيرة مما تحويه الغرفة ، حتى احسست اخيرا .. وكأنني أرزح تحت وطأة عذاب ثقيل ..

شقت صمت المكان صرخة حادة ، كان الان يحدق في الزجاجات المرصوصة بهستيريا وقد جحظت عيناه وراحت شفاهه ترتعش واسنانه تصطك وكأنه مقرور ، صاح في وجهي وهو يلتهم كل جزء من تقاطيعي:

ـ لم يبق سوى عشرين .. عشرين من العناكب اللزجة ..وعندها ينتهي كل شيء .. عشرين من العناكب الغبراء العفنة .. (ثم بعد صمت مفاجيء) :

ـ هيه .. أنت عزيز اذن ؟ ألم أقل لك بانني صياد ماهر ... ها . ها . ها . . كانت أسنانه لا تزال تصطك بعنف .. هدأ قليلا بعد ان دفن رأسه بين راحتيه وكان لا يزال يردد بصوت منفعل :

ـ مائة عنكبوت فقط .. ثم بعد ذلك تأتي الآلاف .. بل الملايين.. يجب ان أمسحها من الوجود دون رحمة .. يجب ان أسحق كل عناكب

العالم الخسيسة .. يا للقذارة .. كيف تعيش العناكب .. بينما يقتل الاطفال دون رحمة ..

لاول مرة احسست بشفاهي ترتعش وبانني اغرق في حوض من الجليد ، وتمنيت ان أجد في نفسي الشجاعة الكافية لاحتضان هذا الكائن التعيس .. وقبل ان الفظ كلمة واحدة .. صرخ في وجهي بغضب :

ـ هل تدرك معنى ان يقتل الاطفال ؟ أطفال يموتون وعيونهم تحدق بذلة في وجوه جلاديهم القاسية .. بينما تعيش العناكب بكل عفونتها في الزوايا المظلمة .. هذه ليست عدالة .. هل تسمعني ؟

حاولت أن اسحبه الى الغرفة الكبيرة .. وقبل ان اتحركه ،لمحت امه تقف الى جانبه وهي تحاول عبثا تهدئته .. وبين لحظة واخرى تمد اصابعها المرتعشة لتجفف دمعة تحاول السقوط .. كانت ملفوفة بالسواد ، فبدت كجذع شجرة عتيقة محروقة الجذور ، وعلى راسها شلال من رماد ينساب بهدوء ووقار .

رحت أساعدها في جره الى الغرفة الكبيرة ، وبعد جهد طويل، القيناه على السرير بعد ان غاب عن الوعي .. كانت فقاعات من الزبد الابيض ترغي على زاويتي فمه الذي التوى فبدا كحيوان صغير مسلوخ الجلد ...

* * *

الغرفة مضاءة بمصباح يتدلى من السقف الواطيء وعلى الجدار المقابل للسرير صورة كبيرة ، رحت اتاملها بفضول كان يبتسم في الصورة والى جانبه وقف رجل صارم التقاطيع ذو نظرات ثاقبة وانف دقيق .. حدجتني الام بنظرات ذليلة وهي تنشج بصمت .. ثم تمتمت بحرقة :

ـ لقد رحل قبل سنوات ثلاث ولم يبق منه سوى هذا الالم المتحرك الذي يربطني بالحياة بعد أن فجعت بالصغير .. هذا الذي يبتسم في الصورة .. انه يموت امامي كل يوم اكثر من مرة ، ودون ان أطيق عمل اي شيء .

صمتت قليلا وهي تمسح باصابع مرتعشة دموعها .. واضافت بنبرات كسيرة :

ـ اما هذا الصغير الذي تراه في الصورة .. فهو شقيقه الذي .. قتلوه .. وهم يضحكون ..

ـ قتلوه ؟.. لماذا .. وكيف ؟

ـ كانوا يبحثون عنه بجنون .. وعندما يئسوا من ذلك .. افرغوا حقدهم الاسود على رأس الصغير ثلاث رصاصات .. مزقت جمجمته الهشة .. ولم تجد كل توسلاتي ودموعي وصراخي .. واخيرا ..

لم تطق الكلام بعد واخذ جسدها المنهك يهتز كغصن جاف ... وكنت مصعوقا .. كمن مسه سلك كهربائي .. ودون وعي اشرت الى الصورة الكبيرة :

ـ لماذا لا ترفعينها اذن ؟

ـ هو لا يدعني افعل ذلك .. (بعد لحظة صمت) ..

ـ لقد حاولت مرة .. غير انني سرعان ما ندمت بعدها على فعلتي .. فلقد راح يصرخ ويهشم كل ما تقع عليه يده .. ويومها ... لم اعد المسها أبدا ..!

ـ ... ولكن متى حدث ذلك بالضبط ؟ .

رحت التقطت بقلب مرتعش كلماتها المتوجعة وشعور بالذنب يغمرني وانا أعذب بقايا انسانة محطمة .. وأخيرا همست بصوت منوجع:

ـ حدث ذلك بعد مغادرتك المدينة باسبوع تقريبا .. اما كيف حدث ذلك .. فلا أطيق ان أصفه لك .. اما هو .. فلقد أخذ يتعذب منذ اللحظة التي سمع فيها بالجريمة البشعة .. انه يعتقد في قرارة نفسه بانه المسؤول عن مقتل الصغير .. و ..

تمتمت وانا اعض على اسناني وكانني اسحق حشرة سامة :

ـ ... السفلة ..

ـ لعلك تستطيع يا ولدي .. مساعدتي .. فهو يموت امامي كل يوم مرات عديدة .

همست وأنا أحاول التخفيف عنها :

ـ انا طوع يديك ..

* * *

اهتز السرير بفتة وانتفض ـ ك ـ في وسطه مقهقها بهستيريا .. كان يحرك ذراعيه في جميع الجهات ويردد بهلوسة :

ـ مائة عنكبوت .. مائة فقط .. سوف ترى كيف جمعتها اخيرا .. انا صياد ماهر .. ماهر .. سيرى اللصوص كيف اصطدت العناكب .. اين اللصوص ؟ اين القتلة ؟.. اين الصغير .. اين الصغير .. ؟.

قفز من سريره في حركة جنونية وراح يعدو نحو الحجرة الصغيرة المهملة .. مرت دقائق حرجة . مثيرة . وقبل ان اتحرك من مكاني اندفع نحوي بجنون وقد ملأ ثوبه العريض بعشرات العناكب المرتعبة .. افرغها في حركة موتورة على ارضية الحجرة واخذ يحدق فيها بغضب وهي تعدو خائفة . هنا وهناك . اتسعت عيناه اكثر فاكثر ثم بدأ يقهقه بفرح طاغ ويردد :

ـ مائة عنكبوت .. يا لسعادتي يا عزيز .. لقد تمت العملية بنجاح .. والآن .. الى الجحيم ايتها المخلوقات النتنة .. الان ساسحقك جميعا .. آه .. اين انت ايها الصغير الجميل .. لترى بعينيك الجميلتين .. نهاية القتلة ؟.

اندفع بعنف نحو الصورة المعلقة على الجدار فانتزعها في حركة سريعة ، وراحت قدماه تسحقان بقوة وحشية عشرات العناكب المذعورة والتي تحولت في دقائق قليلة الى بقع دبقة وسوائل مختلطة .. وعندما انتهى من سحق آخر عنكبوت .. ضم الصورة الى احضانه في حنان غامر واخذ يحدق فيها بين لحظة واخرى وهو يردد بفرح طفولي :

ـ لقد قتلتها جميعا .. والآن استطيع ان انام بهدوء ..

رفع راسه وحدق في تقاطيع امه الحزينة ثم التفت الي مشدوها وصاح بانتشاء :

ـ انت عزيز اذن ؟. ألم أقل لك بانني صياد ماهر .. (ثم مخاطبا امه) :

ـ وانت .. يا لك من امراة رائعة ..

خيم صمت ثقيل .. مرت دقائق طويلة وهو على حاله تلك .. واخيرا هوى كجذع شجرة مقطوعة فتناثرت قطع الزجاج على ارضية الحجرة ، لتمتزج مع بقايا العناكب المسحوقة .. وراح يرتعش ارتعاشات سريعة . عنيفة .

طفا زبد ابيض على زاويتي فمه ، فالتوت شفته السفلى ، وظلت عيناه تحدقان في سقف الحجرة الواطيء .. ثم سكنت في جسده المتخشب .. بقايا الانفاس !

بغداد

يوسف الحيدري